الفصل الأول

علوم الإنسان والأنثروبولوجيا

ويشمل :

(1) الوضع الحالي لعلوم الإنسان.

(2) علوم الإنسان والفلسفة.

(3) تصنيف علوم الإنسان.

(4) صعوبة البحث في علوم الإنسان.

(5) ظهور الأنثروبولوجيا.

(6) معنى البنائية أو "البنيوية".

علوم الإنسان والأنثروبولوجيا

الوضع الحالي لعلوم الإنسان:

قبل أن نتحدث عن الأنثروبولوجيا بوجه عام والأنثروبولوجيا البنائية بوجه خاص لابد لنا من أن نحدد الموقف بالنسبة للوضع الحالي لما يسمى بعلوم الإنسان.

يتمسك العديد من الباحثين بالتمييز بين علوم إنسانية وعلوم اجتماعية[1]. وهم يهدفون من ذلك إلى وضع الجانب الفطري في مقابل ما هو مكتسب تحت تأثير الظروف الطبيعية أو الاجتماعية. ويرى جان بياجيه[2] أن هذا التمييز لا يكون له معنى إلا إذا تمكنا من أن نفصل لدى الإنسان ما يتصل بتكوين طبيعته بوجه عام ما يتصل بمجتمعه بوجه خاص. وحيث أن هذا الفصل غير ممكن بدليل أن الطبيعة الإنسانية تتضمن ضرورة الانتماء إلى مجتمعات معينة على عكس الاعتقاد السائد في عصر جان جاك روسو، لذا فإن هذا كله يجعلنا نميل إلى عدم الموافقة على أي تفرقة بين العلوم المسماة اجتماعية والأخرى المسماة إنسانية.

أما عن التقابل بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة فقد يخفف من حدته تبادل مناهج البحث بينها. فعلوم الإنسان تستعمل المناهج الإحصائية وحساب الاحتمالات وأيضًا نماذج مجردة سبق تطويرها في ميدان العلوم الطبيعية مما دفع البعض إلى القول بأن في هذا التقارب خطر إضعاف العلوم الإنسانية والقضاء على أصالة السلوك الإنساني. غير أن هؤلاء قد نسوا أن العلوم الإنسانية قد كونت لنفسها بعض الطرائق المنطقية

---

(1) Piaget Jean, "Epistémologie des sciences de l'homme", (ed. Gallimard), 1972, p. 15.
(2) Ibid., p. 16.

الرياضية الجديدة التي ظهرت بدورها في حالات كثيرة لخدمة علوم الطبيعة وأمدتها بحلول لم تكن متوقعة في كثير من الأحيان.

وإذا كانت العلوم التي جرت العادة على معارضتها بعلوم الإنسان هي التي سميت علوم طبيعية أو مضبوطة، فإن هذا الضبط مرده في الحقيقة إلى تطبيق الرياضيات. والقول بأن الرياضيات مضبوطة يعني أنها والمنطق شيء واحد[1] غير أنه في المنطق لا ينبغي أن نهمل الإنسان. فإذا كان المنطق هو نسق من البديهيات فلابد عندئذ من الرجوع لبداهة الإنسان التي هي سابقة على تلك البديهيات.

المنطق إذن ينتمي إلى العلوم المضبوطة والطبيعية كما ينتمي لعلوم الإنسان[2]. بل إن علم الفيزياء وهو علم طبيعي لا يصل إلى هدفه إلا من خلال بناءات منطقية رياضية هي نتاج نشاط إنساني. وفي النهاية فإن نسق العلوم ينخرط في حلزون لا نهاية له[3]. وهو لا يدور في حلقة مفرغة وإنما يعبر في صورته العامة عن حركة جدلية بين الإنسان الدارس وبين الموضوع المدروس.

وهنا يمكن أن نرى أن علوم الإنسان رغم كونها الأكثر تعقيدا والأكثر صعوبة تحتل مكانة مفضلة في دائرة العلوم Le cercle des sciences، وهي باعتبارها علوم الإنسان الدارس Sciences du sujet الذي ينشئ باقي العلوم، لا يمكنها أن تنفصل عن هذه الأخيرة دون تبسيط مشوه ومصطنع. ولكن إذا احتل الإنسان الدارس مركزه الحقيقي كنقطة اتصال بين موضوع فيزيائي وبيولوجي وبين نقطة ابتداء خلاقة

(1) Ibid., p. 99.
(2) Ibid.,
(3) Ibid., p. 105.

بفعل العمل الإنساني والفكر، عندئذ فإن علوم الإنسان ستضمن معقولية الانسجام الداخلي لدائرة العلوم هذه.

علوم الإنسان والفلسفة:

تتفق جميع المدارس الفلسفية على أن الفلسفة تهدف للوصول إلى تنسيق عام للقيم الإنسانية. فهي تصور للعالم لا يضع في اعتباره فقط المعارف المكتسبة ونقد هذه المعارف، ولكن أيضًا المعتقدات والقيم المتعددة للإنسان في كل أنشطته[1].

وقد انفصل عن الفلسفة في القرن التاسع عشر علم الاجتماع وعلم النفس وأيضًا المنطق. ورغم ذلك فإن علم النفس وعلم الاجتماع مازالا يحتلان مكانا هاما في تفكير فلاسفة معاصرين أمثال ميرلوبونتي وجان بول سارتر. بل إن العديد من علماء الاجتماع والإثنولوجيا ذوو تكوين فلسفي[2]. وسنرى في الفصول القادمة أن النظرية الإثنولوجية عند ليفي ستروس لها هي نفسها بعدا فلسفيا سنحاول أن نلقي عليه الضوء في هذا البحث.

كتب جان بياجيه في فصل بعنوان "العلوم الإنسانية والتيارات الفلسفية الكبري"[3]:

"إن رجل العلم ليس أبدًا مجرد عالم فقط، ذلك لأنه ينخرط دائمًا في اتجاه فلسفي أو إيديولوجي. وإذا صح أن لهذا أهمية ثانوية في الأبحاث الرياضية والفيزيائية والبيولوجية، فإنه يمكن أن يكون ذا أثر كبير فيما يختص ببعض المسائل التي تدرسها العلوم الإنسانية ... فالفلسفة الأمبيريقية

---

(1) Ibid., P. 26.
(2) VIET Jean, Les sciences de j'homme en France, Mouton & Co. MCMLXVI, Paris, 1966.
(3) PIAGET Jean, Epistemologie des sciences de l'homme, p. 81.

التي أرسى دعائمها لوك وهيوم والتي أصبحت تقليدا لدى الإيديولوجيات الأنجلوسكسونية والتي كانت الوضعية المنطقية إحدى نتائجها الحالية، هذه الفلسفة هي التي مهدت لظهور المدرسة الأنثروبولوجية الإنجليزية المرتبطة بأسماء Tylor، Frazer[1].

وكتب في فصل لاحق يقول:

"ونحن إذا كنا لا نعرف شيئًا عن الماضي الفلسفي أو عن العادات العقلية لكل من فريزر أوليفي بريل أو ليفي ستروس، فإنه ليس من المستحيل علينا معرفة ذلك عندما نفحص ما يقولونه عن الأسطورة أو عن الاستدلال لدى الشعوب التي يدرسونها: والمشكلة الآن هي أن نعرف ما إذا كانت قوانين ترابط الأفكار التي تكلم عنها الأول أو النسبية المنطقية التي قال بها الثاني أو البنائية عند الثالث، نقول أن المشكلة هي أن نعرف ما إذا كانت كل هذه التفسيرات هي الأقرب إلى نفوس الأفراد في الشعوب المدروسة أو أنها على العكس أقرب إلى نفوس هؤلاء الباحثين!"[2].

والفلسفة تستفيد بإنجازات علم النفس وعلم الاجتماع والإثنولوجيا وعلم اللغة: فدراسة أصل الإنسان تلقي الضوء على النظرة الخاصة بمستقبل الإنسانية، كما أن تحليل عمليات التغير الاجتماعي وتغير الثقافات والحضارات يحتل مكانا هاما في تكوين مفاهيم جديدة عن العالم. وإذا كانت التيارات الفلسفية المختلفة مثل المادية التاريخية والوجودية تصر على انخراط الإنسان بواسطة العمل (البراكسيا) في الوسط الاجتماعي، وإذا كانت دراسة الحرية أو وحدة الإنسانية قد

(1) Ibid., p. 81-82.
(2) Ibid., p. 58.

جددت نتيجة لاعتبارات جديدة قدمتها مقارنة المجتمعات والثقافات، إذا كان كل هذا هكذا، ورغم كل ذلك، فإن البحث في علوم الإنسان المختلفة يميل الآن – في فرنسا – إلى الانفصال عن الفلسفة[1]. فمن الواضح مثلاً أن علماء النفس اليوم أكثر استجابة للأنموذج الذي تقدمه أمامهم العلوم المضبوطة والطبيعية أكثر من استجابتهم لإمكانية إقامة علمهم على أسس فلسفية مأخوذة من فينومينولوجيا هسرل Husserl. كما أن علماء الاجتماع الذين يسيرون على الخط الذي رسمه كارل ماركس يبدو أنهم يهتمون بمنهجه التحليلي أكثر من اهتمامهم بفلسفة التاريخ. وسنرى موقف ليفي ستروس في الأنثولوجيا، وهو إن لم يؤد إلى رفض الفلسفة فإنه قد وضعها بين قوسين.

وينبغي إذا أردنا أن نعرف سبب هذا التحفظ نحو التفكير الفلسفي، أن ندرك أن هذا التحفظ قد تولد عن ضرورة البحث ذاته. فهذا الأخير يبحث عن اليقين وبالتالي عن المنهج الذي أثبت جدارة حقيقية. وهو لهذا يبتعد عن الفلسفة[2].

تصنيف علوم الإنسان:

إن التصنيف الذي يتفق عليه معظم الباحثين في علوم الإنسان يجعلها تندرج تحت فئات أربع[3] هي:

(1) العلوم النوموتيتيقية Sciences nomothétiques أي تلك التي تبحث عن استخلاص "قوانين"، بمعنى أنها تسعى للوصول إلى علاقات كمية وثابتة نسبيا ويمكن التعبير عنها في صورة (وظائف) رياضية؛

(1) VIET Jean, Les Sciences de I'homme en France, P. 78.
(2) Ibid., p. 78.
(3) Ibid., p. 34.

أو تسعى للوصول إلى شواهد عامة أو علاقات تنظيمية عن طريق تحليلات بنائية أو غير ذلك مما يمكن التعبير عنه بواسطة اللغة المتداولة أو بلغة رمزية. إن علم النفس بمعناه العلمي وعلم الاجتماع وعلم الإثنولوجيا وعلم اللغة وعلم الاقتصاد وعلم السكان هي بلا شك أمثلة لعلوم تبحث عن (قوانين).

(2) العلوم التاريخية وهي التي يتجه موضوعها نحو فهم مسيرة الحياة الاجتماعية خلال الزمن.

(3) العلوم القانونية.

(4) العلوم الفلسفية.

وجدير بالذكر أن منظمة اليونسكو تعتبر علوم الفئة الأولى فقط[1] هي الجديرة باسم "علوم الإنسان". وليس معنى هذا أنها هي فقط التي تهتم بالإنسان وأنشطته المختلفة، وإنما هي علوم الفئة الوحيدة التي يمكن أن يطلق عليها لفظ "علوم" بالمعنى الذي ننشده في العلوم المضبوطة.

الانثروبولوجيا إذن تدخل ضمن العلوم النوموتيتيقية، وهي في محاولتها لأن تحذو حذو العلوم المضبوطة يواجهها ما يواجه سائر العلوم النوموتيتيقية من صعوبات في المنهج.

صعوبة البحث في علوم الإنسان:

إذا كانت العلوم النوموتيتيقية يتجه مثلها الأعلى نحو العلوم الطبيعية، فإنها بلا شك تفتقر إلى ما للعلوم الطبيعية من قدرة على التجريب والقياس وفصل المتغيرات. وإذا صح هذا بالنسبة لمعظم العلوم النوموتيتيقية فإنه ينطبق بالأحرى على علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

---

(1) Ibid., p. 34.

إن صعوبة الموضوعية في علوم الإنسان بوجه عام تنشأ بلا شك من أن هذه العلوم تعتمد على الإنسان تارة باعتباره موضوعًا للدراسة وتارة أخرى باعتباره هو الشخص الذي يدرس. ورغم أن الإثنولوجيا تنفرد بين علوم الإنسان في أن الملاحظ ليس جزءًا من موضوع الدراسة إلا أن الباحث يدخل على المعطيات الموجودة في المجتمع أدوات تصورية هي ضرورية لتفسير هذه المعطيات.

ظهور الأنثروبولوجيا:

إن التركيب اللغوي لكلمة "انثروبولوجيا" يعني أنها العلم الذي يدرس الإنسان. ويرى ليفي ستروس أن "الأنثروبولوجيا هي نسق للتفسير يضع في الاعتبار النواحي الفيزيقية والفسيولوجية والسيكلوجية والاجتماعية لكل أنواع السلوك"[1].

ظهرت الانثروبولوجيا قبل ظهور علم الاجتماع وذلك بناء على رغبة الغربيين في معرفة المجتمعات التي تعيش خارج نطاق عالمها المألوف[2]. ومن العوامل التي عجلت بتقدم علم الأنثروبولوجيا مذهب التطور والتقدم التكنولوجي والدراسات التي أجريت عن عمر الأرض وما قبل التاريخ.

ويمكن القول بأن الأنثروبولوجيا تنقسم إلى فروع أربعة[3]:

(1) الأنثروبولوجيا الطبيعية: وهي تهتم بمسألة ظهور الإنسان ابتداء من الصور الحيوانية كما تهتم بالصفات البيولوجية للأجناس.

---

(1) Levi-Strauss Claude Introduction a L'oeuvre de Mauss "Sociologie & Anthropologie", P. U. F. 1950, p. XXV.
(2) Golfin Jean, Les 50 mots Cles de La Sociologie, Privat, Toulouse 1972, p. 16.
(3) Ibid., p. 17.

(2) الاثنولوجيا: وهي تسمى أيضًا الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية. وهي تهتم بدراسة الجماعات الإنسانية ذات الثقافات القديمة والتي يمكن ملاحظتها مباشرة. وهي في هذا تفترق عن الأنثروبولوجيا الطبيعية لأن الباحث قد يضطر إلى أن يعيش مع الشعب المدروس ويصبح كأي فرد فيه. وقد ظهرت الإثنولوجيا كعلم عندما تعذر على الغرب أن يسود العالم سياسيا[1]. لذا فإنه ابتداء من عام 1920 على وجه التقريب ظهر اهتمام جديد بهذا العلم على أنه يساعد في تحديد العلاقة مع الشعوب المستعمرة وسمي بعلم الأنثروبولوجيا التطبيقية[2].

(3) الإيكولوجيا: وهي العلم الذي يدرس العلاقة بين الإنسان ككائن بيولوجي وبين البيئة الطبيعية.

(4) علم اللغة. La Linguistique

وفي السنوات الأخيرة نرى علم الأنثروبولوجيا قد اتخذ لنفسه بعدا جديدا. فهو الآن يعني "نظرة للإنسان" Une vision de l'homme أو مذهب متكامل ابتداء من فلسفة أو عقيدة تدور معطياتها حول موضوع الإنسان، أي ظهر ما يسميه جولفان Jean Golfin: الأنثروبولوجيا المذهبية Anthropologie doctrinale[3]. وعلى سبيل المثال نجد جان بول سارتر يرى في إقامة "أنثروبولوجيا فلسفية" السبيل الوحيد إلى فهم الإنسان وذلك لأن مناهج العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع التقليدي وشتى الدراسات

(1) Cressant Pierre, "Lévi-Strauss", (Psychothèque, éditions Universitaires), 1970, p. 23.
(2) Golfin Jean, "50 mots- clés de la Sociologie", p. 18.
(3) Ibid., p. 18.

الأنثروبولوجية المعروفة، يرى أنها جميعا تستخدم العقل التحليلي، وأنها عاجزة تماما عن تحقيق هذا الهدف[1].

وسنجد أيضًا في هذا البحث أن ليفي ستروس رغم حرصه على أن ينشئ أنثروبولوجيا علمية هي الأنثروبولوجيا البنائية إلا أن هذه الأخيرة قد تمخضت عما يمكن أن نسميه "فلسفة أنثروبولوجية".

معنى البنائية:

يرى البعض أن لفظ البنائية "يعني الآن، في الاستعمال الشائع، فلسفة جديدة في الحياة مثل كلمة "ماركسية" وكلمة "وجودية"[2].

أما دائرة معارف لاروس[3] فقد أوردت أن البنائية ليست مذهبا كما أنها ليست منهجا وإنما هي اتجاه عام للبحث في العديد من العلوم الإنسانية يهدف إلى تفسير الظاهرة الإنسانية بردها إلى كل منتظم Ensemble Organisé ويتفق كلير امبار Andre Clerambard مع ما أوردته دائرة معارف لاروس، ويرى أن البنائية ليست نظرية فلسفية بمعنى الكلمة وإنما هي تيار فكري معاصر موجود لدى فلاسفة مثل فوكوه Michel Foucault صاحب "الكلمات والأشياء"، ولا كان Lacan صاحب "كتابات" "Ecrits"[4].

---

(1) الدكتور زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، (مكتبة مصر – الطبعة الأولى سنة 1968).

(2) LEACH Edmund: "Lévi-Strauss", Seghers, Paris, 1970, p. 30.

(3) Voir: "Structuralisme" in Grand Larousse Encyclopédique "Supplement" de A a Z, 1968.

(4) ميشيل فوكوه. هو فيلسوف وجامعي فرنسي (1926–).وقد خصصنا له بحثًا مستفيضًا بعنوان "البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه"، نشرته دار المعارف. أما جاك لا كان فهو طبيب ومعالج نفسي فرنسي (1901–)، ربما يتسنى لنا الكتابة عنه مستقبلا.

والبنائية ظهرت أصلا عند علماء اللغة كتيار علمي مهد له انتشار المنطق الرمزي ونظرية المجاميع الرياضية، والبناء عند علماء اللغة هو "ترتيب العناصر المعدة لتشغيل الكل".

ولتوضيح معنى البناء أورد كلير أمبار المثال الآتي:

"إن تحليل بناء السيارة لا يعني تكسيرها أو تفتيها إلى قطع صغيرة، وإنما يعني تمييز عناصر المحرك بعضها عن البعض، وكذلك نفعل نفس الشيء مع بقية أجزاء جسم السيارة لنعرف استخدام كل عنصر. وذلك لأن السيارة معدة كوسيلة للانتقال أي الاتصال. وهذه الوظيفة هي التي تسيطر على ترابط جميع العناصر المكونة للكل أي البناء".

وينبغي أن نذكر بأن اللغة هي أيضًا وسيلة اتصال. وهذه الغائية أو الوظيفة هي التي تقود البناء اللغوي".

"Cette finalité, cétte "function" commande sa structure".

فعلم اللغة يهدف إذن إلى الكشف عن العناصر الأساسية أي التي تسمح للبناء بأن يمارس وظيفته"[1].

والبنائية تظهر أيضًا كتيار علمي عند ليفي ستروس صاحب الأنثروبولوجيا البنائية. وهو يعتبر سيد الاتجاه البنائي في فرنسا الآن. وسنخصص الفصل الثالث والرابع من هذا الكتاب لمناقشة أهم خصائص الاتجاه البنائي عنده.

غير أننا قبل أن نعرض لخطة المنهج البنائي (أو البنيوي) في تحليل الظواهر ينبغي أن نتعرف أولاً على الصعوبات التي واجهت الباحثين قبل

(1) André Clerambard, Structuralisme in "Dictionnaire des grandes philosophies", Privat, Toulouse, 1973, p. 365.

ليفي ستروس بسبب قصور المنهج العلمي لديهم، وموقف ليفي ستروس نفسه من هذه الصعوبات، ثم التكوين العلمي الخاص الذي ألهم ليفي ستروس بهذه الوثبة الجريئة، وهي الموضوعات التي سنتعرض لها في الفصل القادم.